أمين معلوف: الصراعات والحروب الجارية مرتبطة بمسألة الهوية

مصير الهويات الثقافية ومأزق الهيمنة

وأعرب الأستاذ أمين معلوف في حديث خاص أدلى به إلى مراسل (كرونوس) بعد انتهاء الندوة التي نظمتها جمعية برونو كرايسكي للحوار بالعاصمة النمساوية فيينا حول أهمية الهوية، عن اعتقاده القوي بأن التحديات التي تواجه خصائص الهوية هي نفسها التحديات التي تواجه خصائص الثقافة، مشيراً إلى أن الإنسان العربي يتحمل بدوره مسؤولية بالغة الأهمية لتجاوز التحديات المصيرية التي تواجه الأمة، من خلال الحرص على الجمع بين استمرارية الثقافة واستمرارية التراث، وضرورة المحافظة على خصائص الهوية والثقافة، وبين الانفتاح والتفاعل مع ثقافات بقية الأمم والشعوب، وتجاوز مرحلة الاكتفاء بالوقوف على أمجاد الماضي وأطلاله. ورأى أمين معلوف الفائز بجائزة (الكونكور) الفرنسية، وبجائزة المتوسط الثقافية بأن كل ما جرى ويجري في العالم من تطوّرات ومتغيرات وتحولات وتكتلات سياسية واقتصادية وثقافية، بما فيها النهضة التكنولوجية وثورة المعلومات والاتصالات، بالإضافة إلى انتهاء الحرب الباردة وبروز النظام الأحادي القطب، وما سبق جميع هذه الاستحقاقات من (خطوط التماس) الدولية، وما شهده العقدان الماضيان من نزاعات وصراعات وحروب، لها علاقة مباشرة بمسألة (الهوية) المثيرة للجدل، وبكل ما يحمله هذا المصطلح من أبعاد وخلفيات. وأعرب أمين معلوف عن الأسف لاستمرار قضية فلسطين ومعاناة الشعب الفلسطيني بدون حل منذ أكثر من نصف قرن، ودعا المجتمع الدولي إلى ضرورة النظر إلى هذه القضية بعين العدل والانصاف، مع التركيز على معالجة المؤثرات التاريخية المتعلقة بتاريخ الشعب اليهودي، ومشاعر القلق التي تنتاب عقول العرب والفلسطينيين، مشيراً إلى أن المأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية هما جوهر الصراع القائم في الشرق الأوسط. وكان أمين معلوف رد على أسئلة مراسل وكالة (آكي) كما يلي:

دعا الكاتب والأديب اللبناني الأصل الأستاذ أمين معلوف العالم العربي إلى ضرورة القيام بنهضة ثقافية وحضارية جديدة تؤهله للخروج من دوامة المأزق التاريخي، وتجاوز التحديات المصيرية التي تواجه الأمة العربية في المرحلة الراهنة على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والثقافية. ولكنه شدّد على أهمية التمسك بخصائص الهوية الثقافية العربية وتراثها الإنساني، مع ضرورة التوجه بشكل رئيس نحو تكريس المبادئ الديمقراطية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان.

***ركزت ندوة برونو كرايسكي على اهمية معالجة مشكلة (الهوية) في هذا الإطار، ما هو تقييمك لطبيعة الصراع في الشرق الأوسط وخصوصاً بين الفلسطينيين والإسرائيليين؟**

= نعم، في الحقيقة مسألة الهوية كانت القضية المحورية في منتدى كرايسكي للحوار. وأود هنا أن أشير إلى أنني خصصت لهذه القضية كتابا كاملاً حمل اسم الأصل ((Origin، ويمكن أن يخصص لها بقية الكتاب والمفكرين والباحثين في مختلف أنحاء العالم العديد من الكتب والمقالات والأبحاث والدراسات المعمقة، نظراً لأهميتها وحساسيتها في حياة الشعوب والأمم في المرحلتين الراهنة والمقبلة. والنقاش الذي دار بين نخبة من المتحاورين والحضور عكس اهتمام الرأي العام بهذه القضية المتشعبة. وفي اعتقادي أن كل ما يجري اليوم في العالم من تحولات ومتغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية له علاقة مباشرة بمسألة (الهوية)، وخصوصاً ما شهده العالم خلال العقدين الماضيين من تطورات وأحداث وخصوصاً ما يتصل بطريقة مباشرة بظاهرة (العولمة) وثورة المعلومات (شبكة الإنترنت)، والمعطيات الجديدة في العلاقات بين الدول والمجتمعات والتي ظهرت مؤخراً، وتحديداً منذ انتهاء ما كان يُسمى بـ (الحرب الباردة) وسقوط النظام الشيوعي وانهيار جدار برلين، وبروز (النظام الدولي الجديد)، والدور الأميركي في العالم خلال فترة ما بعد انتهاء الحرب الباردة في بداية التسعينات من القرن العشرين، وما شهدته من اندلاع عدد من الصراعات والنزاعات والحروب الأهلية والإقليمية في أنحاء متفرقة في العالم، وخصوصاً في منطقتي البلقان والشرق الأوسط اللتين تعتبران أرضاً خصبة للنزاعات حول الهوية والثقافة والمعتقدات.

وفي اعتقادي بأنه كان لتلك الصراعات والنزاعات والحروب جذور وأسباب مرتبطة بمسألة (الهوية). ولذلك فأنه من الصعوبة بمكان، وفي هذه الندوة حصر الحديث في جانب واحد أو وجه واحد لهذه المسالة المثيرة للجدل أي (الهوية)، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار بأن هناك جوانب أخرى أساسية لها علاقة مباشرة بـ (الهوية)، وهي الولاء والانتماء والثقافة واللغة والعقيدة وما يرتبط بها من أحكام وخصائص. ما ركزت عليه في هذه الندوة هو: أولاً، أن موضوع الهوية ليس جديداً، بل هو مطروح منذ فجر التاريخ وفي أنحاء كثيرة من العالم. ولكنه يُطرح الآن بإلحاح أكثر من أي يوم مضى، وبأشكال متعددة منذ انتهاء مرحلة الحرب الباردة في أوائل التسعينات من القرن الماضي، وتحديداً منذ سقوط ما كان يُسمى بـ (الاتحاد السوفياتي) السابق، وبروز نظام القطب الواحد، والذي بدأ يأخذ أبعادا دولية وإقليمية مختلفة، وخصوصاً ما يتصل بطبيعة النزاعات والحروب التي وقعت خلال فترة القرن الماضي، أو ما يمكن تسميته إن صح التعبير بـ (خطوط التماس) الدولية، ولا سيما ما يتعلق بالمجالات العقائدية والإيديولوجية والأطماع الاقتصادية، وبما أفرزته الصراعات والحروب التي طغت عليها سمات وخصائص لها علاقة مباشرة بالهوية والانتماءات العرقية والقومية وحتى الدينية، بين أقطاب النظامين الرأسمالي والاشتراكي من تحولات وتحديات، وما تبعها من إنشاء تكتلات وأحلاف سياسية واقتصادية وعسكرية على النطاقين الدولي والإقليمي.

وأود هنا أن أشير إلى أن ما حصل من تطورات منذ بداية التسعينات، وتحديداً منذ نهاية الحرب الباردة جعل مسالة الهوية تطرح على نطاق واسع على مختلف المستويات السياسية والرسمية والشعبية في أنحاء كثيرة من العالم وخصوصاً في منطقة البلقان والشرق الأوسط. وفي هذا السياق، ينبغي أن نأخذ في الحسبان ظهور دولة كبرى واحدة أخذت تهيمن على الساحة الدولية وهي الولايات المتحدة، وانعكاسات التطور التكنولوجي الحاصل في اطار ما يُسمى بظاهرة العولمة وثورة المعلومات وشبكة الاتصالات التي جعلت العالم وكأنه قرية صغيرة، الأمر الذي اعتبره العديد من الخبراء والمفكرين والباحثين والمؤرخين بأنه أدى إلى ظهور تحديات جديدة وضغوط دائمة على كافة الهويات والثقافات والحضارات في العالم، وهو ما دفع أبناءها -أمام كل هذه التحديات- إلى طرح العديد من الأسئلة والاستفسارات عن مكانة هوياتهم الثقافية ومصيرها، وعن دور ثقافاتهم في المرحلة الراهنة، وما هي آفاق وملامح مستقبلها في هذا الخضم الهائل من الهويات والثقافات الأقوى التي تسعى للهيمنة أو احتواء أو تهميش الثقافات والهويات الأخرى.

أما فيما يتعلق بالشق الثاني من السؤال، فمما يؤسف له، أن قضية فلسطين ومأساة الشعب الفلسطيني لا تزالان قائمتين منذ أكثر من نصف قرن من الزمن، وتحديداً منذ اغتصاب فلسطين وطرد أعداد كبيرة من الفلسطينيين إلى خارج ديارهم وممتلكاتهم في العام ١٩٤٨. ولكن ينبغي على المجتمع الدولي أن ينظر إلى هذه القضية وتلك المأساة بعين العدل والإنصاف، مع التركيز على معالجة جذور الصراع، وتحديد هل هو صراع من أجل الأرض أم صراع على الحدود أم صراع من أجل الوجود؟ كذلك ينبغي التركيز على مسائل تتعلق بتاريخ الشعب اليهودي، وما عاناه اليهود من أشكال الظلم والقمع والاضطهاد، إلى جانب معرفة ما يدور في عقول المنكوبين من أبناء الشعب الفلسطيني الذي يواجه عمليات التطهير العرقي والتهميش التاريخي على نطاق واسع منذ عشرات السنين. كما ينبغي علينا الأ ننسى المؤثرات التاريخية، ومشاعر القلق التي تسيطر على عقول العرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص. وفي اعتقادي بأن المأساة الحقيقية التي يعانيها الشعب الفلسطيني، هي التي تغذي الصراع القائم في الشرق الأوسط.

***في ظل تحديات العولمة وتفاقم النزاعات في كثير من الأحيان، وهيمنة الثقافات الأقوى، هل يمكن للإنسان أن يتخلى عن هويته أمام هيمنة الهويات الثقافية الأخرى؟**

-في اعتقادي بأن الإنسان أياً كان لا يمكن أن يتخلى عن هويته بمفهومها الشمولي بسهولة. والذي يتخلى عن هويته بكل ما تحمله من خصائص ثقافية ودينية ولغوية يفقد شيئاً أساسياً من كيانه، وسيحاول مدى حياته أن يسعى جاهداً للتعويض عما فقده بأساليب مختلفة. وفي رأيي أنه يجب على الإنسان أن يشعر بأن عليه في الوقت نفسه أن يسعى لاكتساب انتماءات جديدة وخصائص ثقافية أخرى في البلد الأجنبي الذي يعيش فيه، بشرط أن يحافظ على الخصائص الأساسية لثقافته وهويته وانتمائه لبلده الأصلي وأن يكون سفيراً له، وأن يتعمق بالانفتاح على ثقافة الآخرين. وفي اعتقادي أيضاً بأن الحل المنطقي لمسألة الهوية في إطار عالم متطور لا بدّ من أن يقوم على أساس التعددية والتنوع، أي أن لا يكون الإنسان أسيراً لثقافة واحدة أو لهوية واحدة أو لانتماء واحد، بل ينبغي عليه أن ينفتح على أكبر عدد من الثقافات والهويات والانتماءات للاستفادة والإفادة. كذلك يجب على الإنسان أن يكون قادراً على استيعاب وفهم العناصر الأساسية في ثقافات الآخرين، مع ضرورة احترام الخصائص التي تتميز بها هوياتهم، وذلك انطلاقاً من أهمية الانفتاح على العالم وأفضلية الاستعداد الدائم لتقبّل الآخرين والتفاعل معهم.

وفي الواقع، إن هذه المسألة أصبحت مطروحة الآن وعلى نطاق واسع في أوروبا، وخصوصاً من الجوانب المتصلة بتحديد واقع ومستقبل ومصير مئات الآلاف، بل والملايين من المهاجرين العرب من أبناء الجيل الأول والثاني والثالث، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار بأن هناك العديد من المهاجرين من أبناء الأجيال الثلاثة يسعون دائماً للعودة إلى جذورهم وأصولهم وأوطانهم ولغة أجدادهم وثقافتهم. ولذلك أرى انه يجب على المهاجر الذي يعيش الآن في أي بلد أجنبي -وخصوصاً في أوروبا- أن يحافظ على علاقته بهويته ولغته ومميزاتها، وثقافة وطنه الأم وخصائصها، وفي نفس الوقت أن يتعمق في الاطلاع على ثقافة البلد المضيف كما أشرت آنفاً. كذلك ينبغي على البلد الذي يستضيف المهاجرين أن يقبل بتعدد ثقافة المهاجرين ويحترم خصائص هوياتهم ومعتقداتهم، وأن يقرّ بحقوق الإنسان المهاجر وانتماءاته التي ربما قد لا تكون قائمة في مجتمع هذا البلد أو ذاك. ولا بدّ هنا من التأكيد بأن التنوّع سواء أكان في الثقافات أو الهويات أو الأعراق أو العقائد الدينية التي تتلاقى عند العديد من القواسم المشتركة وفي طليعتها المحبة والتسامح والتعايش، والتي تشكل إثراء للفرد والمجتمع، بشرط أن يعيش الإنسان هذا التنوّع بشكل عادي وغير متناقض مع نفسه باستمرار، وبما يسمح له بتنمية قدراته وإمكانياته البشرية والثقافية وإبراز خصائصها ومميزاتها أمام الآخرين.

*** كثير من الأدباء والمفكرين والنقاد يعتقدون بأن رواياتك وكتبك تمثل التنوع الحضاري والمشاعر الإنسانية المستمدة من الهوية الثقافية، ومن صميم الذات والتراث التاريخي، ما هو تعليقك؟**

- آمل أن يكون ذلك صحيحاً. ولكن أود أن أؤكد بأننا الآن نعيش في عالم صعب وصاخب ومتطور للغاية، ولا أبالغ إذا قلت بأن البشرية جمعاء تمر الآن في أدق المراحل وأكثرها خطورة وحساسيةً في التاريخ المعاصر، ولا سيما إذا أخذنا في الاعتبار الوضع العالمي الراهن والبالغ التعقيد والحافل بكم هائل من المشاكل والتحديات، الأمر الذي وضع العالم على صفيح ساخن منذ الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وفي اعتقادي بأنه بات من الضروري أن يبادر كل إنسان إلى تخصيص وقت كاف للتفكير بشكل منطقي ومتزن وهادئ بوسائل المساهمة في الجهود المبذولة على مختلف المستويات المحلية والإقليمية والدولية والسياسية والثقافية من أجل الخروج من المأزق العالمي الحالي. وهذا ما أحاول أن أقوم به أنا شخصياً، من خلال تسليط الضوء عليه في المرحلة الراهنة. ولكن لا بدّ من أن نضع في الحسبان بأن هناك كماً هائلاً من القضايا والمشاكل الدولية والإقليمية المعقدة، ولا يكفي أن يكتب أي عالم أو مفكر أو باحث أو أديب كتاباً أو كتابين عن هذه المواضيع، لأن هناك العديد من المسائل الأساسية ذات الصلة بالثقافة والهوية واللغة والانتماء، ستظل مطروحة وبشكل مأساوي في الكثير من الأحيان وعلى نطاق عالمي ولا سيما في ظل ظاهرة العولمة، وبحيث لا تترك انعكاسات سلبية خطيرة على مدى أجيال طويلة، وهناك تخوف من أنها قد تؤدي إلى المزيد من النزاعات.

*** في ظل هذه التحديات والتحولات والتطورات وظاهرة العولمة والضغوط الأجنبية التي تمارس لتغيير المناهج التعليمية في هذا البلد أو ذاك، هل تعتقد بأن الثقافة العربية والإسلامية هي المستهدفة؟**

- في الواقع، هذا موضوع واسع ومتشعب. ولكن في اعتقادي أن ما أشرت إليه بشأن التحديات التي تواجه الهوية تنطبق على التحديات التي تواجه الثقافة والمناهج التعليمية. ولذلك ينبغي على الإنسان العربي أن يكون قادراً على مواجهة هذه التحديات من خلال الجمع بين استمرارية الثقافة وبين استمرارية التراث، مع ضرورة المحافظة على خصائص ثقافته وهويته والانفتاح على ثقافة الآخرين، والحرص على التنوّع الحضاري. وفي الوقت نفسه أن يكون مستعداً للانفتاح على الثقافات الأخرى. وبرأيي ان ذلك ينطبق على كافة الثقافات المعاصرة، وفي طليعتها الثقافة العربية والإسلامية ذات التراث الإنساني والحضاري الهائل، والتي تواجه بدورها كماً هائلاً من التحديات. ومن هذا المنطلق، في اعتقادي، بأن العالم العربي، وفي هذه المرحلة بالذات، أصبح بحاجة ماسة إلى قيام نهضة ثقافية وحضارية جديدة تقوم على أساس المبادئ الديمقراطية وضمان الحريات العامة وصون العدالة والمساواة وسيادة القانون وحماية حقوق الإنسان، باعتبارها من أهم العوامل التي تساهم في إخراجه من المأزق التاريخي الذي يعيش فيه الآن بسبب مشكلته مع الذات من جهة، وبسبب مشاكل الآخرين من جهة ثانية. وفي الختام، أود أن أشير إلى أن علاقتي مع وطني الأم لبنان والعالم العربي ستظل علاقة دائمة ومستمرة بحكم الثقافة والهوية والتاريخ.

أمين معلوف في سطور

- ينحدر أمين معلوف من عائلة معلوف التي قدمت إلى راشيا الفخار من مدينة زحلة الواقعة شرقي لبنان منذ أكثر من ٢٠٠ عام. وقد عُرفت عائلة معلوف بالفضل والكرم والأخلاق، وحب أبنائها الشديد للثقافة والأدب والعلوم. وقد هاجر عدد كبير من عائلة معلوف إلى الولايات المتحدة وأوروبا والبرازيل وسجلوا نجاحات باهرة.

- هو من مواليد بيروت في ١٤ فبراير ١٩٤٩،

- تلقى تعليمه الابتدائي والتكميلي في مدرسة السيدة، والثانوي في كلية الجمهور، والجامعي في جامعة القديس يوسف في بيروت وتخرج فيها حاملاً إجازة في العلوم الاجتماعية،

- متزوج من السيدة أندريه معلوف، ولهما ثلاثة أبناء هم: رشدي وطارق وزياد،

-عمل في الصحافة اللبنانية خلال الفترة ١٩٧١ – ١٩٧٦ في جريدة (النهار) . كما عمل خلال الفترة ١٩٧٦ – ١٩٧٩ في المجلة الفرنسية (جان أفريك)،وخلال الفترة ١٩٧٩ – ١٩٨٢ مديراً لمكتب جريدة (النهار) في باريس. وخلال الفترة ما بين ١٩٨٢ - ١٩٨٥ عمل مديراً للتحرير في مجلة (جان أفريك)،

- من أبرز مؤلفاته: الصليبيون بعيون عربية/١٩٨٤، و(ليون الأفريقي)/١٩٨٨، و (سمرقند)/١٩٩٢، و(القرن الأول بعد بياتريس)/١٩٩٤، و(صخرة طانيوس)/١٩٩٦، و(حدائق تحت الضوء/١٩٩٨، و(نداء المرافئ/١٩٩٩، و(الهوية)/٢٠٠٠، و(بالثاسار أوديسي/٢٠٠٢، و (أصول) ٢٠٠٣.

- نال عدة جوائز ثقافية أبرزها جائزة (الكونكور) الفرنسية عام ١٩٩٣، لروايته (صخرة طانيوس) وهي رواية لبنانية مستوحاة من حياة طانيوس في القرن الثامن عشر، والتي مزج فيها أمين معلوف بين التاريخ والخيال، وركز على مظاهر الحب والخيانة. أما روايته (حدائق تحت الضوء) فقد ركز أمين معلوف على شرح قصة غير عادية لأحد الأنبياء ويدعى (ماني) الذي استمد عقيدته من الأديان المختلفة في زمانه، ويحض فيها على التسامح والمحبة. ويشير إلى أن النبي (ماني) كان يهدف إلى نشر رسالته في زمن الحرب، حيث تدور أحداث الرواية حول العديد من المحاور الإنسانية، وخصوصاً المحبة والحزن والظلم والخداع. أما روايته الرائعة (الصليبيون بعيون عربية) يستعرض فيها أمين معلوف رؤية العرب ووجهة نظرهم تجاه الصليبيين وما ارتكبوه خلال حملاتهم من جرائم وانتهاكات. ثم يخلص إلى إجراء مقارنة بين الصليبية والبيئة السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحالية في العالم العربي. وفي العديد من الأحاديث والمقابلات الصحافية والتلفزيونية شاطر أمين معلوف الكثير من المفكرين والأدباء والمؤرخين العرب قولهم بأن الصليبيين كانوا غزاة برابرة أكثر منهم شعوباً حضارية متمدنة. ومع ذلك يشير إلى أنه على الرغم من مرور فترة زمنية طويلة على انتهاء الحملات الصليبية، فإنها لا تزال تلقي بظلالها المأساوية على واقع العلاقة بين أوروبا والإسلام. وأقر أمين معلوف بخطر وتهديدات الإرهاب ولا سيما بعد الهجمات الإرهابية التي تعرضت لها واشنطن ونيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ولكنه يرفض مقولة احتمال أن يصبح الإسلام عدواً جديداً للغرب بعد سقوط النظام الشيوعي.

وكان أمين معلوف نال في السادس من يونيو الماضي (جائزة المتوسط) التي منحته إياها محافظات بربنيان ولونغ روك روسيون وبيرينيه أورينتال الفرنسية، وذلك تقديراً لروايته الجديدة (أصول) التي تسلط الضوء على تاريخ عائلته (معلوف) في لبنان، كما يسرد فيها جوانب مهمة من الانفتاح في مداه المتعدد الجوانب في البلدان الواقعة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

وخلال حفل تسليم الجائزة لأمين معلوف بحضور حشد من كبار المسؤولين والأدباء والمفكرين والشعراء الفرنسيين والعرب، تحدثت سفيرة لبنان في باريس السيدة سيلفي فضل الله، فاشادت بأهمية الجائزة التي مُنحت لتكريم كاتب لبناني مرموق لجأ إلى لغة بودلير وشق ثلماً في الإنتاج الأدبي الفرنكوفوني. وأوضحت قولها بأن أمين معلوف ومنذ روايته (ليون الأفريقي): (ما برح يدفعنا إلى اكتشاف مصادر غير معروفة كثيراً، وذلك بعد تحري دقتها ومصداقيتها التاريخية، مزاوجاً إياها بمعرفة عميقة للمسائل ذات الصلة بالوجودية التي تعتمل داخل المجتمعات المضطربة. وأعربت السفيرة فضل الله عن اعتقادها بأن أمين معلوف، ومع روايته (أصول) باشر في إطلاق حنينه والعودة إلى منابع طفولته. إذ بعدما توفي والده الأديب والصحافي المعروف رشدي المعلوف، يلمس قارئ الرواية كيف غاص أمين معلوف في نبش تاريخ عائلته في لبنان، ومعرفة ما فيها، وفك أسرارها من خلال إجراء تحقيق أدبي موثق). وخلصت السفيرة اللبنانية إلى مخاطبة الحضور قائلة: (إنكم حين تكرمون أمين معلوف، فإنما تكرمون لبنان وفرنسا بنفس الوقت، هذا اللبنان الحديقة الأخيرة للغة الفرنسية في الشرق الأوسط. وإذا كنا نحرص على إثراء هذه اللغة فلأنها تدافع عن المثل وقيم الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية والتقدم التي نشاطركم إياها منذ زمن بعيد).

أما أمين معلوف فقد ارتجل كلمة قصيرة أعرب فيها عن اعتزازه القوي بانتمائه إلى لبنان وطنه الأم الذي أنجب الكثير من العلماء والأدباء والمفكرين والفلاسفة في شتى حقول المعارف والعلوم الإنسانية، وإلى فرنسا وطنه الثاني في وقت واحد من خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط، مشيراً إلى أن هذا المدى المتعدد الوجوه يحتاج إلى عملية بناء وتطوير دائمة.

*أمين معلوف في حديث خاص لوكالة (آكي) الايطالية للأنباء.

مواجهة الخضـــوع ... مشهد ثقافي بصـــري

عبد الكريم العبيدي

داخل المشهد الثقافي العراقي (البصري)، أحسست بذلك النوع من الخضوع، الذي يتحداه المثقف العراقي عموماً في ظل المتغيرات الحاصلة. فالمشهد الثقافي العراقي يتوزع طبقاً لتداعيات الماضي الثقافي وتعقيد الراهن العراقي بمجمل مستوياته.

استطلعنا في هذا التحقيق آراء مجموعة من أدباء وشعراء البصرة حول الحاضر الثقافي، الأدباء في البصرة قدموا توصيفاً متباينا للمشهد الثقافي العراقي.

(تابو) من المهيمنات

يقول السيد محمد عطوان/ باحث.. (عندما نتحدث عن مشهد ثقافي عراقي - بصري، ينبغي ابتداءً تأمل دائرة المثقف الذاتية وما تخزنه من تصورات، عما يمكن أن تجترحه من إجابة كلية عن الراهن الواقعي والمتخيل.

فلا يزال المثقف البصري، كما المثقف العراقي يصطدم بـ(التابو) من المهيمنات المعاشة، العائلة المقدسة، الحزب، المؤسسة الدينية، المشتغلون في الجهاز المؤسسي السلطوي الراسب في ذاكرة من الأبوية والرياسة والملك والاستئثار بالسلطة.

لذلك، من أجل فتح كوة لأفق مأمول، على المثقف العراقي - البصري أن ينطوي على منتظم ثقافي معرفي يؤثر المغايرة والتجديد، لكسر المدارات الضيقة والمحددات والقوالب للنهوض بإمكانيات تسم هويته الجديدة، عبر إتقان اللغة الثقافية الجديدة، التي تفقه رموز الشفرة الجماعية للمحكي والكوني على السواء، في عراق ذي نسخة ثقافية جديدة)..

فترة حرجة!

ولكن شروط التحول تبقى موجودة دائما، تفرز انتقالات غائمة في فترتها الحرجة، وتراهن على ذلك الحنين الضال في خريطة متمسكة بسياقاتها القديمة ولا تروم الانعتاق الصعب إلى مغامرة لها أطوارها وخصائصها الصعبة التكوين..

يقول الأديب جميل الشبيبي (بعد انهيار النظام الفاشي البغيض، كان أدباء البصرة سباقين بمساهماتهم الأدبية والثقافية لرفد هذا التغيير الأساسي في حياتهم.. وكان لشروعهم قبل غيرهم في تجديد دورة الحياة في اتحادهم وانتخاب هيأة إدارية جديدة، تأثير واضح في مسيرة الثقافة والأدب، وتنشيط دورهما الفاعل في الساحة الأدبية والثقافية.

وخلال هذه الفترة الحرجة، فترة الاصطدامات العنيفة والمزايدات السياسية والانتماءات المصلحية، أجد أن كثيراً من زملائي الأدباء والمثقفين يقفون إلى جانب العراق الجديد بأقلامهم الشريفة ونتاجاتهم الإبداعية وأفكارهم التي تدعو إلى عراق ديمقراطي تعددي، وهم إذ يسهمون الآن في ترصين هذا الجانب بالذات، فإنهم على معرفة بأن هذه الانعطافة باتجاه العراق الديمقراطي التعددي، سوف تكفل للعراقيين الأمان والسعادة وستفتح آفاقاً رحبة للأدب والثقافة في اعرافنا الجديد).

سرة الأرض وقلبها

بعد التحول الذي حدث في الحياة السياسية والاجتماعية ثمة متغيرات ثقافية نعيشها الآن تتجاذبها خلفيات ثقافية وضغوطات محيطة تواجه مشروع الحرية لدينا.

يقول الكاتب جاسم العايف: (ينطوي المشهد الثقافي في البصرة على مفارقات عدة، أهمها الخلل العام في الحياة اليومية حيث تحولت (الحرية) إلى فوضى، وبالتالي فإن ثمة نكوص في الحلم.. الحلم الذي جعلنا ننأى عن مصافحة النظام السابق وأزلامه منذ أواخر السبعينيات.

لقد آمنا بموقف الضمير المتوقد، حيث كان التماسك هو الحرية، حينما كان إرهاب وعسف ودمار نظام صدام الفاشي طوال عقود انطوت، هو القاعدة.. وهنا، في هذا الوضع يمكن أن تتفاعل عوامل النكوص، إلا إننا نراهن على ولادة عراق جديد في ليل الفاشية، وهذه الولادة - التي لم تحسم بيد عراقية - لها استحقاقاتها الإقليمية والدولية.. وهذا ما يجعلنا نعي أن ما نمر به هو ظرف زائل، لأن قراءة التاريخ العراقي تضع أحلامنا في موضع المستقبل، فعلى هذه الأرض ولدت الشرائع الوضعية الأولى، ومنها انطلقت أصوات التوحيد الإبراهيمية، إنها سرة الأرض وقلبها كما وصفها (المسعودي) وأرى أن نظام البعث وصدام هو آخر الغزاة، وسينكفئ عنها الإرهاب حتماً، وعندها يبدأ نداء المستقبل الذي أراه، ومعي كل النفوس الطيبة، إنه العراق الجديد، عراق الحداثة والتنوير والمعاصرة والديمقراطية.

إصدارات

الشاعر والناقد مقداد مسعود قال: (إن الجهود المبذولة من لدن اتحاد الأدباء والكتاب في البصرة، بعد سقوط التمثال تؤكد أن للأدب في البصرة فاعلية متميزة ومتقدمة.

فقد أصدر الاتحاد مجلة (فنارات) و(عزلة من زمرد) وهي مجموعة قصائد لعدد من شعراء البصرة، إضافة إلى مشروع إصدار الكتاب القصصي الذي سيهتم بنتاجات الأدباء في البصرة.

ويضيف مسعود: إن الأديب البصري أخذ مساحته الحقيقية الآن من خلال نشاطاته الأدبية في الصحف والمجلات العراقية والعربية التي كانت سابقاً محصورة على نفر محدد.. كما أصبح للكثير منهم مواقع على الانترنت، وكان ذلك من المنوعات في عهد صدام البائد!

انفتاح مفاجئ

إزاحة العبودية، كتحول كبير، من دون الاستعانة بقوانينه الطبيعية يولد التباساً مضبباً، وينتج عن ذلك بروز مجموعات طارئة في كل المشاهد، تحاول أن تتسيد التفاعل العام، وأن تمنح هويتها الفاسدة لمجموع عناصره المؤثرة.

يقول طالب عبد العزيز وهو شاعر من جيل ما بعد الثمانينيات: (لا يختلف المشهد الثقافي في البصرة عن مكونه العراقي. وفي ظل (هامش الحرية) الذي منح له، بعد التحولات الأخيرة، استرد المشهد هذا بعضاً من أهميته، بوصفه مؤثراً أصيلاً.

غير أن الانفتاح المفاجئ والسريع وغير الممنهج أصاب الحياة الثقافية بأكثر من عثرة، وسوء فهم، مما أعاق الخطوات الثقافية الفتية، وما ارتجال بعض المؤسسات التي تدعي رعاية الثقافة إلا المفصل السيئ لفهم المشهد برمته.

لقد خسرت (البصرة) أكبر فرصة منحت لها، حيث سادت روح النفع الذاتي برنامج عملها العام، ولو قيض لها أن تسترد خطواتها باتجاه آخر لمنحتنا فرصة أفضل.. ولكن يبدو أن الرؤية ما زالت تعوزها الجرأة، والحرية بحاجة إلى (خصومات) كبيرة!!

إعادة غير رتيبة

الرجوع إذن إلى ذلك الحنين في طارئ كهذا، يغدو ملاذاً حتمياً، وتكون الرغبة، تبعاً لذلك، في نشوء المحاولة، ومن ثم في كسادها، هي الحلم.. بعدما تخلصت الذات من نكوصيتها الأولى، وتنفست على هامش تغيير غير منظم، سيحتاج إلى كثير من الوقت كي تسترد قوانينه عافيتها، وتزاول ببطء فاعليتها القديمة - الجديدة، ليس بعيداً عن ذلك النوع من الخضوع، إن لم تكن العبودية!!